الأرملة الفقيرة ربّت إبنها بالشبر والنذر وعندما أصبح طبيباً خطفوه.. ولم يعد

خرج ولم يعد...

طرق الحرب سالكة باتجاه المجهول... والامن صدفة... والعودة الى البيت نجاة يومية من حاجز او قناص او سيارة مفخخة.

خرج ولم يعد...

اكثرهم الصقت بهم هذه العبارة. المفتوحة على عذابات أم انتظرت... وتنتظر... وتموت قبل ان يعود ابنها من المجهول.

في مكان ما... في كل الامكنة الممكنة... كان الخطف على الهوية الطائفية، احد ابشع ما ارتكبه القتلة في لبنان، الذي اورث عذابات تورث العمى والذوبان في الالم حتى الموت.

خرج ولم يعد... عبارة تطلق على اكثر من عشرة الاف لبناني، لم يعرف مصيرهم بعد، ولا احد يعترف انهم لن يعودوا... ولا احد يجرؤ على اعلان وفاة حبيب او ابن او ابنة او... رفيق عمر.

من «قصص الاحزان»، حكاية شاب ترويها اخته التي تنتظر ان يخرج من الصورة المعلقة في الصالون، ليحدثها:

فقد والده وكان حدثاً بعد، فتولت والدته تربيته الى جانب شقيقته الكبرى وراحت الوالدة تلاحق لقمة العيش، لتقي عائلتها شرّ العوز، لكن مرارة الايام، حتّمت عليها، حمل وحيدها الى مدرسة بيت اليتيم الدرزي في عبيه، فتخرّج منها حاملا شهادة في الرياضيات، وتابع فيها مدرّسا لمدة خمس سنوات، لكن حلمه كان ابعد من ذلك، فواصل تحصيله العلمي في الخارج، منهيا سبع سنوات في دراسة الطب، في احدى جامعات الولايات المتحدة الاميركية. لكن حنينه، قاده في اوائل العام ١٩٨٣، زائرا الى وطنه، لتمضية فترة من الراحة، في ربوعه، بين اهله ومحبيه.

لكن الطالب المتفوق حمد خزاعي ابو سعيد، الذي زفّ البشرى، بقرب تخرجه طبيبا، الى والدته وشقيقته واصدقائه ومعارفه لم يكن على علم بما يخبئ له القدر، صبيحة الرابع عشر من آذار عام ١٩٨٣، حيث قصد بيروت عن طريق مرجعيون، صيدا، في وقت كانت اسرائيل ما زالت تحتل المنطقة، وذلك على امل العودة في اليوم التالي، لكنه اختفى منذ ذلك الحين، واختفى معه امل العائلة.

«السفير» التقت شقيقته سهيلة، التي راحت تروي قصة الشقاء والفقر، التي عاشتها العائلة مطلع حياتها، بعدما فقدت معيلها، وتحدثت عن والدتها التي كانت تعمل «من الفجر الى النجر»، متنقلة من منزل الى آخر، عاملة «بخبز الكارة»، حتى تؤمن لقمة العيش، وما تيسر، لتعليم ولدها، على امل الخروج من دائرة الضيق والعوز، التي تحكمت بهم، ولكن ما حدث لم يكن بالحسبان، كما قالت: فالوالدة، اصيبت بالعمى، من شدة تأثرها وحزنها، وكثرة بكائها على اختفاء ولدها الوحيد، ثم تدهورت صحتها، الى ان اصطفاها الله برحمته، فماتت بحسرة ولدها المفقود.

تقول سهيلة وهي تلملم دموعها، شقيقي كان طموحا، سافر الى أميركا ودرس في احدى كليات الطب، فكبر حلمنا، واملنا، بقرب تخرجه، لكن عودته الى لبنان، في زمن شريعة الغاب، والقتل على الهوية قد غيرت مفاهيمنا، وقضت على آمالنا، واختطفت البسمة عن شفاهنا، واستبدلتها بحزن عميق، ما زلنا نعيش ظله حتى الآن، حيث لم نتوصل الى معرفة كيفية اختفائه؟ ولماذا؟ وأين؟. وتساءلت هل تمت تصفيته؟ أم أنه ما زال حيا، نريد ان نعرف الحقيقة، والدولة هي المسؤولة عن ذلك.

قالت بحسرة: اعتقد ان مدة سبعة عشر عاما على اختفائه كافية، لتنهك قوانا، وتنال من صحتنا، وتدمر حياتنا. ما أريد معرفته الآن، السبب الذي كان وراء اختطاف، او اختفاء او قتل شقيقي، خاصة وانه كان يدرس في اميركا أيام الاحداث، ولا دخل له فيها لا من قريب ولا بعيد، فقط اراد ان يكبر بوطنه، ووطنه يكبر، هل هذا هو الجرم، الذي يستحق هذا العقاب! سامحهم الله، على فعلتهم ووقاهم شرّ انفسهم وازال عنهم ظلم الظالمين.

وقالت: الحزن يلاحقنا ليل نهار، وكلما تذكرته، اشعر بغيبوبة تتملكني، واجهش بالبكاء والنواح، واحاول الانفلات من هذه الحلقة الكئيبة، التي احكمت

الشقيقة الحزينة

طوقها على حياتنا، لكن يا حسرة! كيف، ونحن لم نعرف ما هو مصير اخي. ليتنا بقينا على ما نحن عليه، وبقي حمد بيننا، حتى اخدمه «برموش» عيوني.

ولكن سهيلة التي ما زالت تحمّل الدولة مسؤولية الكشف عن مصير شقيقها، تقول: انني افقد الامل بعودته، إلا ان القدرة الالهية قادرة على كل شيء، وتابعت: الصبر مفتاح الفرج، والموت هو الكفيل باخراجي من مستنقع العذاب الذي اعيشه.

... ماذا جنت الحرب اللبنانية، ومن استفاد منها؟ فها نحن حصدنا الخراب والدمار والخطف والقتل؟، الم يكن الشعب اللبناني برمته هو الضحية؟ الم تتشلع قلوب الامهات على ابنائهن، لا لسبب، إلا لأنهم ارادوا التمسك بناصية السلطة، عن طريق السكر على نجيع الشباب.

وقالت سهيلة: كنت انتظر شقيقي حاملا شهادة الطب، لأعلقها في صدر الصالون، وأتباهى به طبيبا، لكن اختفت الشهادة، مع اختفاء الطبيب، وبقيت صورته مرفوعة للذكرى.

شوقي الحاج